رحلة الحداثة

قراءة في الرُّؤية والتَّصوُّر ودوافع السُّقوط

إعداد:

د. محمد بن هادي المباركي

الأستاذ المشارك بقسم الأدب والبلاغة بكلية اللغة العربيَّة

الجامعة الإسلاميَّة بالمدينة المنوَّرة

المقدمة

الحمد للَّه ربِّ العالمين والصَّلاة والسَّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيِّدنا ونبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فإنَّ قضيَّة "الحداثة" من القضايا التي أثارت جدلاً واسعاً في الشِّعر العربي الحديث، واتَّسم امتدادها وانتشارها بشيءٍ من الضَّبابيَّة، وانعدام الرُّؤية الواضحة للمفاهيم، والمصطلحات المتعلِّقة بها بدءاً بمصطلح "الحداثة" نفسه، وما يفرزه من تصوُّرات متباينة، وآراء مختلفة لدى كثير من أقطاب الحداثة.

والحقيقة أنَّه منذ عقود خلت احتدام النِّقاش بين أنصار الحداثة، والأدباء المحافظين، ودارت صراعات فكريَّة حامية بين الطَّرفين، وكنت ألحظ بدوري ذلك النِّقاش المثير، وما فيه من تعصُّب شديد، ودفاع حادٍّ من أصحاب هذا التَّيَّار، الذي استماتوا في الدِّفاع في بادئ الأمر، ولكنَّهم ما لبثوا أن خفَّت حماستهم، وهدأت عاصفتهم، وبدأوا يبتعدون عن هذا التَّيَّار، وينسحبون عن الدِّفاع عنه، بعد أن تكشَّفت لهم بعض الحقائق مع مرور الزَّمن.

وقد وددت أن أشارك في الكتابة عن رحلة الحداثة إلى شعرنا الحديث، وأثرها في النِّتاج الشِّعري.

وقد اخترت عنوان البحث ليكون عن النَّحو الآتي:

رحلة الحداثة
– قراءة في الرُّؤية والتصوُّر ودوافع السُّقوط –

وقد تكوَّنت خطَّة البحث من مقدِّمة ومدخل وأربعة مباحث وخاتمة.
حيث تضمَّن "المدخل" الحديث عن "نزعة التَّجديد" في الشِّعر الحديث.
أمَّا المباحث الأربعة فجاءت على النَّحو الآتي:

المبحث الأوَّل: مفهوم الحداثة وجذورها.

المبحث الثَّاني: انتقال الحداثة إلى الأدب العربي.

المبحث الثَّالث: أثر الحداثة في الشِّعر الحديث.

المبحث الرَّابع: سقوط الحداثة.

وأخيرا جاءت الخاتمة، وفيها خلاصة البحث.

أمَّا المنهج الَّذي قامت عليه هذه الدِّراسة فيقوم على إبراز الآراء النَّقديَّة ومناقشتها، وإبداء الرأي حيالها، وكذلك إبراز الجانب التَّطبيقي من خلال عرض النَّماذج الشِّعريَّة في الاتِّجاه الذي أدرسه، وبيان المضامين الفكريَّة التي يحملها.

والله تعالى أسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به، إنَّه خير مسؤول.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد, وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً .

❁❁❁❁❁

مدخل:

النَّزعة إلى التَّجديد:

النَّزعة إلى التَّجديد في أدبنا المعاصر أمر محبَّب ومرغوب، تُقبل إليه النَّفس، وتجد فيه ملاذاً مشرقاً؛ كي يعبِّر عن آمالها وتطلُّعاتها، ونظرتها إلى المستقبل بعين العصر، وتجلِّيات الواقع، وروح الاندماج مع كل ما هو ملائم لطبيعة العصر، ومواكب لطبيعة التَّجديد، والانفتاح على الثَّقافات المتعدِّدة، والإفادة من "الثَّورة المعلوماتيَّة" والانفجار المعرفيّ، الذي قرَّب كلَّ بعيد، وأصبح العالم في ظلِّه قرية يراها الإنسان بوضوح، ويدرك من خلالها كلّ جديد في عالم الثَّقافة والفكر والإبداع.

لقد كانت هناك أسئلة تحاصرني منذ زمن، ولا أجد لها إجابةً شافية، ولا ردوداً مقنعة، ومن تلك التَّساؤلات: ما ماهيَّة "الحداثة الشِّعريَّة" التي شغلت بال الدَّارسين حيِّزاً من الزَّمن، وقامت حولها النِّقاشات والاختلافات، وتعدُّد وجهات النَّظر، بل واشتعلت الخصومات الأدبيَّة حول هذا المصطلح الجديد "الحداثة"، وما هي جوانب التَّجديد فيه ؟

إنَّه سؤال عصيٌّ ومتازِّم، ومتعدِّد الرُّؤى والاتجاهات لدى جميع المثقَّفين، الذين لاحظوا دخول هذا المصطلح بكلِّ ما يحمله من تساؤلات:

هل الحداثة مرادفة للمعاصرة، والتَّحديث، والتَّجديد ؟ أم هي مضادة لمصطلح "القدم" ؟

وهل هي تجديد في الشَّكل فقط، أم في المضمون ؟ أم في الشَّكل والمضمون معاً ؟

وهل تشكِّل الحداثة لبنةً تُضاف إلى لبنات البناء في تراثنا الثَّقافيّ والأدبيّ ؟ أم أنَّ هناك انقطاعاً معرفيَّاً بين "الحداثة" وبين التُّراث، الذين بناه أُدباء العربيَّة عبر قرون متوالية ؟

لقد رفع كثير من المثقَّفين والأدباء العرب لواء التَّجديد، وجعلوا من الحداثة مركباً سريعاً للوصول إلى تحقيق بغيتهم، دون أن يكلَّفوا أنفسهم عناء البحث والتَّحرِّي.

ولا بدَّ من الإجابة على هذه التَّساؤلات المفترضة، التي يفرضها إدخال هذا المصطلح الغريب العجيب إلى أدبنا وثقافتنا دون تثبُّت، ومعرفة حقيقيَّة للماهيَّة، والمنهج الذي يسير عليه، والأفكار التي يصدر عنا، والرُّؤى والتَّصوُّرات التي ينطلق منها، كي يتبوَّأ تلك المكانة العالية، والمنزلة السَّامية التي تجعله يقف شامخاً على هرم ثقافتنا وآدابنا، ومن خلالها يؤطِّر للمنهج، ويضع الرُّؤى والتَّصوُّرات، ويحدِّد المسارات، يرسم المعالم الأهداف، ويترك بصمته الغريبة على ثقافتنا، وآدابنا، وحضارتنا التي شهد لها القاصي والدَّاني، واعترف بقيمتها وقيمها وعلو منزلتها البعيد قبل القريب.

لقد راحت ثُلَّة من المثقَّفين تعلِّل لهذا التَّجديد، وتبرِّر له وتعتذر له، وتقدِّمه كأمر فرضته الأوضاع الرَّاهنة، وفي مقدِّمة تبريرهم واقع الأُمّتين العربية والإسلاميّة، والأحداث الدّامية، والتَّشرذم الموجع، والتفكُّك المنهك الذي أحدث عدداً من الانهزامات والانكسارات في جسد الأمة فباتت أحوج ما تكون إلى التَّجديد[1].. وعلى هذا النَّحو من النَّزعة العاتية نحو التَّجديد، والأعذار الواهية، والحجج الضَّعيفة لقبوله، وكان على المثقَّف والمبدع والمنظِّر أن يعي خطورة الموقف – الذي يتحدَّث عنه– وتعقُّد المرحلة، ودوره الحصيف في

(١) انظر: الحداثة بين التَّعمير والتَّدمير د. حسن بن فهد الهويمل ص ١١.

الانتقال بأمَّته في هذه المرحلة الحاسمة من فكر منهك أثَّرت فيه الحوادث الجسام إلى فكر مستنير، يحافظ على الثَّوابت والقيم التي قامت عليها ثقافته وحضارته، ويرعى الأسس والمرتكزات التي لا محيد عنها أمام أي تحديث أدبي، أو تجديد يمسّ الثَّقافة والإبداع؛ لأن المبدع يحمل هويَّته العقديَّة، ويتحمَّل في سبيلها مكائد الآخر في الشَّرق والغرب، لا أن يكون معبراً سهلاً، يعبر من خلاله من يريد إلى النَّيل من ثقافته وحضارته، قيمه ومبادئه تحت ستار ناعم، وشعارات برَّاقة اسمها "التَّجديد" و"التَّحديث"، وهو المدخل الذي دخلت من بوّابته "الحداثة" تحت تأثير مبدأ النَّزعة إلى التَّجديد بأيّ شكل كان.

❁❁❁❁

المبحث الأوَّل:
مفهوم الحداثة وجذورها

لم يختلف دارسوا الأدب ونقَّاده حول مصطلح أدبيّ قديماً وحديثاً كما اختلفوا حول مصطلح "الحداثة" سواءً عند النُّقَّاد الغربيّين أو النُّقَّاد العرب من حيث المفهوم.

ففي الأدب الأوروبي –حيث ولادة الحداثة ونشأتها وانتقالها بعد ذلك إلى أدبنا الحديث – نجد تعدُّداً في المفاهيم، واختلافاً في الرُّؤى نحو تحديد لمفهوم هذا المصطلح، الذي اكتنفه كثير من الغموض، والاتِّجاهات الفكريَّة المختلفة التي تسير في إطارها. حيث يعرِّف "رولان بارت" الحداثة بأنها انفجار معرفيّ لم يتوصَّل الإنسان المعاصر إلى السَّيطرة عليه، ويصف ملامحها وسماتها فيقول: "في الحداثة تنفجر الطَّاقات الكامنة، وتتحرَّر شهوات الإبداع في الثَّورة المعرفيّة، مُولِّدةً في سرعة مذهلة وكثافة مدهشة أفكاراً جديدة، وأشكالاً غير مألوفة، وتكوينات غريبة، وأقنعة عجيبة. فيقف بعض النَّاس منبهراً لها، ويقف بعضهم الآخر خائفاً منها، هذا الطُّوفان المعرفي يولِّد خصوبةً لا مثيل لها، ولكنَّه يُغرِق أيضا"[(١)].

ويقول "هربرت ريد" في كتابه "الفنُّ الآن": "إنَّنا نلمس الآن ابتعاداً عن كلِّ أنواع التُّراث، ولا يمكن أن ندعو هذا الابتعاد بالتُّطوُّر المنطقيّ؛ لأنه ليس هناك ما يوازيه تاريخيَّاً، لقد وجدنا أنفسنا فجأةً نكفر بجهود خمسة قرون من الإبداع الفنِّيِّ"[(٢)].

---

(١) مجلَّة الحرس الوطنيّ، العدد (٩٦٣) ص (٢٣٢) ربيع الآخر ١٤١٠هـ.

(٢) الفنّ الآن، لهربرت ريد ص ١٩٢ (لندن ١٩٦٠م).

ويقول "ليونيل ترلنك": "إنَّ ما تعنيه الحداثة : اللا عقل، والاضطراب، والأحزان الشَّخصيَّة العميقة، والفوضى الاجتماعية الكاسحة، والعدميَّة، والموقف المعادي للحضارة، والتَّورُّط، والغربة، واللا نظام"(١).

أمّا "أورتيك كاسيت" فمصطلح الحداثة عنده يعني الهدم، والفوضى والتَّمرُّد على كلّ ما هو سائد، وما هو متعارف عليه في التاريخ الإنساني. يقول: "الحداثة هدم لكلِّ القيم الإنسانيّة التي كانت سائدة في الأدب، وهي الفنّ الثَّائر على النَّاس، والزَّمن، والتَّاريخ"(٢).

بهذه المصطلحات التَّصادميَّة التي لا تعرف سوى مبدأ "الهدم" لكلّ ما شيَّده الأوائل، وما بناه الأسلاف، وكذا مبدأ "الثَّورة" على كل القيم الإنسانيَّة والدينيَّة والأخلاق، و"التَّمرُّد" على كلّ الثَّوابت والمبادئ والأعراف، كانت تلك الصُّورة هي بمثابة لوحة بارزة ارتسمت عليها الملامح والأبعاد الفكريَّة التي كان ينشدها النُّقَّاد الأوروبيِّين لهذا المصطلح الذي دخل بقوَّة إلى أدبنا، ووجد من الأدباء والنُّقَّاد العرب من يتلقَّف تلك الرُّؤى والأفكار، ويدخلها إلى أدبنا، ويروِّج لها، بل ويتبنَّى هذا المذهب، ويدعو إلى الدخول في غماره بدافع التَّجديد، والانتقال بالأدب من حالة الرُّكود إلى الازدهار –كما يزعمون–. يقول كمال أبو ديب – أحد أقطاب الحداثة في أدبنا المعاصر– مبيِّناً ملامح المذهب الذي يدعو إليه: "الحداثة انقطاع معرفي، ذلك أنَّ مصادرها المعرفيَّة لا تكمن في المصادر المعرفيَّة للتُّراث، أو في اللغة المؤسَّساتيَّة، والفكر الدِّينيّ، وكون الله مركز الوجود، وكون السُّلطة السِّياسيَّة مدار النَّشاط

(١) الحداثة – مناقشة هادئة لقضيّة ساخنة – د. محمَّد خضر عريف ص ١٥.

(٢) المرجع السَّابق ص ١٥.

الفنِّيّ، وكون الفنّ محاكاة للعالم الخارجي. الحداثة انقطاع؛ لأن مصادرها المعرفيَّة هي اللغة البكر، والفكر العلمانيّ، وكون الإنسان مركز الوجود، وكون الشَّعب الخاضع للسُّلطة مدار النَّشاط الفنِّيّ، وكون الدَّاخل مصدر المعرفة اليقينيَّة – إذا كان ثمَّة معرفة يقينيَّة– وكون الفنّ خلقاً لواقع جديد" (١).

أمَّا أودنيس "أحمد سعيد علي" فيضع بعض الأسس الأوَّليَّة لحركة الحداثة في الشعر العربي، ويرى في مقدِّمتها: "التَّمرُّد على الذِّهنيَّة التَّقليديَّة الذي بدأه الشُّعراء القدامى، وإنضاجه إلى أقصى ما تتيحه التَّجربة – دون أي نوع من أنواع الخضوع للتَّقليد– فلا يتمّ التَّجديد بالعودة إلى التَّقليد أو بالتَّلاؤم مع أشكاله، إنَّ في مثل هذه العودة انفصالاً عن الحاضر، وتقييداً للحساسيَّة، وخيانةً للواقع؛ لأن التَّقليد ثبات، والحياة حركة، فمن يبقى في التَّقليد يبقى خارج الحياة، وكما أنَّ الأمانة للتَّقليد نفي للحياة، فإنَّ الأمانة لأشكاله وأساليبه الشِّعريَّة نفي للشِّعر"(٢).

وبأسلوب شاعري خياليّ يعلن أودنيس بداية مرحلة التَّحديث على أنقاض الماضي المنتهي، فيقول: "إن عهد الثَّقافة الشِّعريَّة القديمة قد انتهى، وعبثاً نتمسَّك به، وننفخ فيه. عَمَلُنا اليوم هو أن نتخطّاه إلى عهد آخر، وشرط هذا التَّخطِّي أن يتفجَّر مدهشاً ومفاجئاً، لكي يستطيع أن يهزَّ برودة الحياة، وتقاليدها الجامدة"(٣).

إذن أدونيس يريد أن ينحِّي التُّراث الشِّعريّ جانباً، ولا يلتفت إليه، ثم يريد

---

(١) تقويم نظريَّة الحداثة د. عدنان النَحوي ص ٣٩.

(٢) الحداثة في الشِّعر العربيّ المعاصر بين التَّنظير والتَّطبيق د. عبد الحميد جيدة ص ٦٣.

(٣) المرجع السَّابق ص ٦٧.

أن يأتي على أنقاضه بهيكل جديد، يحمل مواصفات خاصة، لعلّ في مقدِّمتها "الثَّورة" التي يريدها أن تتقدَّم هذا التَّجديد، حيث يدعو بوضوح إلى أن يكون الشِّعر العربي الحديث ثوريًّاً، ويعتمد في تنفيذه هذا التَّجديد على جانبين أساسين:

أحدهما: تفكيك البنية الثَّقافيَّة العربيَّة التي تتعارض مع الثَّورة، وهدم هذه البنية وتجاوزها.

ثانيهما: فتح آفاق جديدة تتيح نشوء البنية الثَّقافيَّة الثَّوريَّة الجديدة(١).

هكذا يربط أدونيس حركة الحداثة الشِّعريَّة بروح الثَّورة والتَّمرُّد، بل ويقف عند التُّراث الشِّعريّ وقفةً جريئةً داعياً إلى تفكيك بنيته الثَّقافيَّة، وهدمها وجعلها في طيّ النِّسيان، وهو بذلك يلغي التُّراث الشِّعري الأصيل صراحة، ويطلب من الأدباء المعاصرين والنَّاشئة من المثقَّفين أن ينطلقوا من بنية ثقافيَّة جديدة عمادها وأساسها الثَّورة على كلّ شيء حتَّى الثَّوابت والمسلَّمات، وهذا الكلام فيه من الخطورة والتَّجنِّي على التراث الشيء الكثير.

إن الحداثة في عرف كثير من الحداثيّين وأقطاب هذا الاتِّجاه ليست سوى الثَّورة،والتَّمرُّد على كل شيء، فهي ليست تجديداً في شكل القصيدة الحديثة، ولا في وزنها أو قافيتها، ولا في جماليَّات الصُّورة ومنحها شُحنةً مكثَّفة من الخيال الشِّعري حتَّى تظهر بثوب قشيب فيه ملامح التَّجديد.. فهذا النَّوع من التَّجديد تنفيه النَّاقدة خالدة سعيد في دراستها "الملامح الفكريَّة للحداثة" وتؤكِّد على الثَّورة الفكريَّة التي تنشدها الحداثة، وأنَّها ليست سوى محاولةٍ لتغيير الفكر، والانقلاب على الماضي، حيث تقول: "الحداثة ثورة فكريَّة، وليست مجرَّد مسألة تتَّصل بالوزن والقافية، أو بقصيدة النَّثر، أو

(١) الحداثة في الشِّعر العربيّ المعاصر بين التَّنظير والتَّطبيق ص ٩٤ –٩٥.

بنظام السَّرد، أو البطل أو إطار الحدث، أو تثوير الشَّكل المسرحي وما إلى ذلك من تفصيلات؛ لأنَّ هذه الجوانب الجزئيَّة تكتسب دلالتها من الموقف العام، وهي تجسيد لهذا الموقف"(١).

أمَّا الذين يخوضون في غمار هذا التَّيَّار الفكريّ الجديد فليس أمامهم سوى الصِّراع مع المنجزات السَّابقة التي بناها الأسلاف، ثم تحوَّلت إلى تجريدات وبُنى وتقاليد وأنماط، وهذا الصِّراع مع نتاج الأسلاف يهدف إلى تحوُّل يبدِّل مع الفاعل المبدع، هكذا ترى خالدة سعيد موقف الأديب من تراث أمَّته، إذ تقول: "فبعد أن كان الإنسان فاعلا أو منتجاً للمنجزات عادت هذه المنجزات منتجةً له، وهكذا تمثَّلت الحداثة الأوروبيَّة منذ بدايتها في الصِّراع مع المؤسَّسات الدِّينيَّة، وقوانين الكنيسة، والتَّقاليد الاجتماعية، والمفهومات الموروثة، ثمَّ في مرحلة متأخرة مع التَّقاليد الأدبيَّة لصالح مبادئ الحرِّيَّة الفرديَّة والابتكار والعفويَّة"(٢).

هكذا تتوالى سلسلة الصِّدامات مع التُّراث العريق، والحضارات المجيدة، بل وحتَّى مع المؤسَّسات الدِّينيَّة!! فماذا بقي من أمر مقدَّس لم يصطدم به أرباب الحداثة، ولم يدعو إلى الثَّورة عليه، والتَّمرُّد على ثوابته، وقيمه، وآدابه.

إنَّ مصطلح الحداثة من خلال ما تقدَّم لا يعني بأيِّ شكل من أشكال التَّجديد في القصيدة الشِّعريَّة الحديثة، لا من ناحية الشَّكل ولا من ناحية المضمون، فلا هو يهتمّ بالصِّياغة اللفظيَّة أو الصَّنعة في شكل القصيدة كما حدث في العصر العبَّاسي على يد "أبي تمَّام" وغيره من الشُّعراء الذين عرفوا بشعراء الصَّنعة، ولا هو يهتمّ بالتَّجديد في الأوزان والقوافي واستحداث ألوان

(١) مجلَّة فصول المجلَّد الرَّابع الجزء الثَّالث (سنة ١٩٨٤م) ص ٢٥.
(٢) المرجع السَّابق ص ٢٧.

جديدة من الأزوان المستحدثة كما حدث في العصر المملوكي الذي استحدث بعض شعرائه ألواناً من الأوزان "كالدُّوبيت" و"القوما" و"الكان كان" وغيرها من الأوزان، وهو ما ظهر بوضوح الشِّعر الأندلسي الذي استحدث أربابه لوناً جديداً من الأوزان، وهو "الموشَّحات" التي جاءت نتيجةً طبيعيَّةً تتلاءم مع طبعية الحياة الاجتماعية والثَّقافيَّة في ذلك العصر.

ولا يظنُّ أحد أنَّ "قصيدة التَّفعيلة" التي ابتدأ ظهورها مع نازك الملائكة من خلال قصيدة "الكوليرا" (١) هي الصُّورة الحقيقيَّة للحداثة، أو أنَّ "الحداثة" تتمثَّل في شعر التَّفعيلة، فالحداثة –كما تقدَّم – هي ثورة فكريَّة تدعو إلى التَّمرُّد على كلِّ ثابت وأصيل، وتصطدم مع كلِّ منجز صنعه الأسلاف. أمَّا شعر التَّفعيلة فهو بكلِّ وضوح تجديد في موسيقى القصيدة وفي شكلها الإيقاعي، وإن اختلف البعض مع هذا التَّحديث والتجديد(٢)، إلاَّ أنَّ شكل القصيدة مرَّ بأشكال متعدِّدة في العصور الأدبيَّة المختلفة يتلاءم مع ذوق كلّ عصر(٣)، وهو مع ذلك فقد وفِّق حيناً ولم يحالفه التَّوفيق أحياناً أخرى، ومع ذلك فقد ظلَّ الشِّعر العمودي الملتزم بالأوزان الخليليَّة له المقدِّمة، ولم يبتعد عن ذائقة المتلقِّين، أو تذهب قيمته، فقد ظلَّ أثيراً عندهم(٤).

---

(١) انظر: الشِّعر الحديث في المملكة العربية السعودية خلال نصف قرن (١٣٤٥هـ-١٣٩٥هـ) د. عبد الله الحامد ص ٤١٩ ؟

(٢) انظر: الأدب الحديث –تاريخ ودراسات – د. محمد بن سعد بن حسين ص ٦٢-٦٣.

(٣) انظر: فصول في الشِّعر ونقده د. شوقي ضيف ص ٣٠٩.

(٤) انظر: في الأدب الحديث د. عمر الدُّسوقي ٢/٢٢٨.

ومن قائل يقول: "إنَّ شعر التَّفعيلة يتنوَّع فيه النَّغم، وتتجدَّد التَّفعيلات، وتسجَّل المعاني التي ترد على الخاطر في دقَّة وسهولة ويسر"(١).

وهذا رأي يعبِّر عن وجهة نظر نقديَّة معاصرة، لكنَّ الشَّيء الذي يتفق عليه النُّقَّاد هو أنَّ الموهبة الشِّعريَّة هي موضع الرِّهان وميدان السَّبق، الذي يتسابق فيه الفرسان، فمن لا يملك الموهبة الشِّعريَّة فلن ينظم شعراً، سواء على الأوزان الخليليَّة أو على شعر التَّفعيلة. يقول د. حلمي القاعود مدلِّلاً على أهمِّيَّة تلك الموهبة: "إنَّ المدى الخليلي يمنح نفسه للشُّعراء الموهوبين حقًّا، والقصيدة التَّقليديَّة تعطي نفسها للموهوبين الكبار الذين يُخلَّد شعرهم على مدى الأعصر.. ولكنَّ المدى الخليليّ أو القصيدة التَّقليديَّة تستعصي على العجزة وأنصاف الموهوبين، وهواة الشُّهرة وأصحاب الهوى"(٢).

إنَّ الشِّعر الحديث يفتح قلبه للتَّحديث الهادف، ولا يرفض التَّجديد في الوزن، وهو مؤمن بأنَّ العبرة في المضمون الذي يعبِّر عن ذلك الشَّكل الشِّعري، وفي هذا يقول أحد الشُّعراء المعاصرين وهو د. عبد الرحمن العشماوي مفرِّقا بين ما يطرح بين الأدباء من الخلط بين "شعر التفعيلة" و"الحداثة"، حيث يقول في مقدِّمة ديوانه "يا ساكنة القلب": "فرق كبير بين "الحداثة" مصطلحا، و"شعر التَّفعيلة" نمطاً فنِّيًّاً جديداً؛ لأنَّ "الحداثة" منهج فكري ينطلق من قاعدة الرَّفض لكلِّ قديم، والتَّحرُّر من هيمنته، وهو منهج يمكن أن يعرضه حامله في قصيدة موزونة مقفَّاة أو قصيدة تفعيلة أو حتَّى مقطوعة نثريَّة أو قصَّة أو رواية أو مسرحيَّة أو غير ذلك من أساليب الأدب.

(١) الشِّعر المعاصر على ضوء النَّقد الحديث، لمصطفى السَّحرتي ص ١١٩.

(٢) الحداثة تعود، د. حلمي القاعود ص ٢٦.

ولو أنَّ "الحداثة" مقصورة على قصيدة التَّفعيلة –كما يظنّ البعض – لصحَّ لنا أن نقول: "إنَّ كل قصيدة موزونة مقفَّاة سليمة المعنى، نزيهة الفكر حتَّى وإن كان كاتبها من أكبر روَّاد "الحداثة" ومنظِّريها وهذا ما لا يقول به عاقل"(١).

ويشير د. العشماوي إلى أنّ الحداثيِّين لم يحيدوا عن صدامهم الفكري، فقد نظموا القصيدة الموزونة المقفَّاة، كما نظموا قصيدة التَّفعيليَّة، وأكثروا من ذلك، ولكن رؤاهم المتمرِّدة ظهرت بوضوح في الجانبين، حيث يقول: "لقد كتب روَّاد الحداثة القصيدة الموزونة المقفَّاة كما كتبوا القصيدة التَّفعيلة، وطرحوا في ذلك كله رؤاهم الحداثيَّة المتمرِّدة على قيم الأمَّة وفكرها، فهل معنى ذلك أن نرفض شعرهم التَّفعيلي، ونقبل شعرهم الخليلي ؟ هذا خلط لا تقبله الموازين السَّلميّة!!.

شعر التَّفعيلة أسلوب حديث في كتابة الشِّعر، له إيقاعه المستمدُّ غالباً من بحور الشِّعر العربيّ المعروفة، وله صوره المنبثقة من رؤى العصر الذي نعيش فيه، وفي نماذجه ما هو جيِّد غاية الجودة، وفيها ما هو رديئ غاية الرَّداءة، شأنه في ذلك شأن كلّ أسلوب أدبيٍّ وفنِّيٍّ، ولا أرى في ذلك ما يمنع من الكتابة به ما دمنا لم نفرِّط في أعمدة الشِّعر الثَّابتة الإيقاع أو الوزن والعاطفة الصَّادقة والصُّورة الشِّعريَّة. إن الأسلوب التَّفعيلي وعاء فنِّيٍّ ينفث فيه كاتبه ما يعتنقه حقيقةً ويؤمن به"(٢).

ولا شك أنَّ القول: إنّ الحداثة قد أضافت تجديداً في الوزن الشِّعري إلى أدبنا الحديث ليضاف إلى سجلِّها هو محض ادِّعاء، وهو الأمر الذي أثار تعجُّب كثير من النُّقَّاد، ومنهم د. حلمي القاعود، الذي يقول: "لا أدري أيّ

(١) – ديوان يا ساكنة القلب د. عبد الرحمن بن صالح العشماوي ص ٦.
(٢) ديوان يا ساكنة القلب ص ٨.

فضاء متألِّق بهيٍّ للحداثة، وأيَّة إمكانات رحبة لها يمكن أن تضيف لثروتنا الأدبيَّة في العصر الحديث ؟

إن الحداثة كما قدَّمها روَّادها هي التَّمرُّد على السائد والثَّابت والموروث، فأيّة موسيقى يمكن أن تقدِّمها الحداثة في شعرنا المعاصر ؟"(١).

❁❁❁❁

(١) الحداثة تعود ص ٢٧.

المبحث الثاني:
انتقال الحداثة إلى الأدب العربي

التَّواصل بين الآداب والثَّقافات والحضارات المختلفة أمر في غاية الأهمِّيَّة، حيث تلاقح الأفكار، وتعدُّد الرُّؤى، وغزارة الطَّرح، وتنمية ما يمكن تنميته وتطويره، والإفادة من تعدُّد المشارب، وتنوُّع الاتِّجاهات، والتقاط الطَّريح الجادّ الذي يخدم الأدب والثقافة، ويسهم في إضافة لبنة جديدة إلى صرح الحضارة والمعرفة.

ومن يتتبَّع التُّراث العربي منذ البواكير الأولى في العصر العباسي يلمس بوضوح التقاء الثَّقافة العربية مع ثقافات متنوِّعة منها: الفارسيَّة، والهنديَّة، واليونانيَّة، فقد أذكت النَّهضة الثَّقافيَّة والعلميَّة جذوة التَّرجمة، وما نتج عنها من نقل العلوم، والفنون، والمعارف، والآداب إلى اللغة العربية، فترجمت علوم وفنون لا غنى عنها، وأصبح المثقَّف العربي أمام كمٍّ هائل من الرُّؤى والأفكار والتَّصوُّرات، وحُقَّ له أن ينهل من معين المعرفة بكلّ أبعادها واتِّجاهاتها، ملتمساً منها ما يقوِّي الرُّؤية، ويوسِّع الأفق، ويفتح مجالات رحبة للتَّنظير الأدبي والنَّقدي، ويضفي على الحركة الأدبيَّة ما يجدِّد رؤاها، ويقوِّي وهجها، ويخدم تراثها، ويتواكب مع تطلُّعات مثقَّفيها، ويبتعد عمَّا يسيئ إلى المعتقدات الدِّينيَّة، أو يصطدم مع الثَّوابت الرَّاسخة، أو يسعى إلى النَّيل من القيم النَّبيلة والأخلاق الفاضلة، أو يتجنَّى على التَّاريخ الإسلامي، أو ينال من التُّراث الذي بناه الأسلاف، وقدَّموا خلاله عصارة فكرهم وثقافتهم.

وهذا أمر مألوف ومعروف عندما التقت الثَّقافة العربيَّة بغيرها من الثقافات المتنوِّعة في العصر العباسيّ، وكيف كانت الإفادة الواعية الناضجة من الآداب والحضارات المتعاقبة من دون إفرط أو تفريط، أو غلوٍّ وشطط.

ومن خلال هذه المقدِّمة يتَّضح لنا البون الشَّاسع والفارق الكبير بين التقاء الثقافة العربيَّة في العصر العباسيّ مع الثَّقافات والآداب المختلفة التي ترجمت علومها آنذاك، وبين التقاء ثقافتنا المعاصرة بالثَّقافة والآداب الأوروبيَّة في العصر الحديث. ومردُّ البون الشَّاسع بين الالتقاءين في القديم والحديث يتمثَّل في طريقة الأخذ والتَّرك، والإفادة والانبهار،والمحافظة على الشَّخصيَّة أو ذوبان تلك الشَّخصية، وكيف الإفادة من الآخر بوعي وذكاء وفطنة دون الارتماء في أحضان الآخر، والتَّسليم المطلق لكلِّ ما يصدره دون تفكُّر وتأمُّل ومناقشة، بل والأدهى والأمرُّ من ذلك كلِّه هو القبول بما يسيئ للعقيدة الإسلاميَّة، أو ينال من ثوبتها، ومبادئها، أو يصطدم مع القيم والأعراف، أو يطعن في تراث الأمَّة الأصيل، ويدعو إلى هدمه وإحراقه وتنحيته جانباً، بل ويعدُّه سبباً من أسباب تخلُّف المثقَّف العربي في العصر الحديث.

وهذه الجوانب كلُّها تمثَّلت مع شديد الأسف في مستوى التَّفاعل والأخذ والذَّوبان الذي ظهر به كثير من المثقَّفين المعاصرين.

وأخص بهذا التَّفاعل ما ظهر جليَّاً من مواقف سلبيَّة، وأخرى متواطئة في جلب تيَّار "الحداثة" والتَّهليل والتَّصفيق له، والرَّفع من شأنه بشكل يجعله كأنه الحلّ الأوحد لرقيّ أدبنا وثقافتنا، والخروج بهما من دائرة الأزمة التي افتعلها أولئك النَّفر من المثقَّفين، ورموا من خلالها الأدب بالتَّقليد، والجمود، والتَّخلف.

وهل أولئك النَّفر لا يدركون سلفاً خلفيَّة "الحداثة"، وعلى أيّ أساس نشأت في أوروبا، وإلى ماذا دعت صراحةً، أو لم تكن إفرازاً طبيعيَّاً للفكر الغربيّ الذي قطع صلته بالدِّين، وثار على الكنيسة، وتمرَّد على كلِّ سلطة دينيَّة، حيث انطلق المجتمع هناك من عقاله بدون ضابط أو مرجعيَّة دينيَّة، وبدأ يحاول أن يبني ثقافته من منطلق علماني بحت، ومن هنا بدأ المنظِّرون لتيَّار الحداثة ينطلقون في أفكارهم من مبدأ "الرَّفض القاطع" و"الثَّورة الفكريَّة"

و"التَّمرُّد على الثَّوابت" و"تحطيم القيود" و"الحرِّيَّة المطلقة" وما إلى ذلك من مصطلحات ثوريَّة تحارب الأديان، وتصطدم مع الثَّوابت، وتكرِّس مبدأ التَّحرُّر والفوضى.

فهل رحلة الحداثة إلى ثقافتنا وآدابنا تستند إلى شيء من التَّقارب الفكري والحضاريّ ؟

وهل تلك الدَّعوات الثَّوريَّة المتمرِّدة تصلح منهجاً جديداً مبتكراً لثقافتنا الأصيلة ؟

وهل هناك مرجعيَّة دينيَّة يصحّ لنا أن نرفضها أو نثور عليها ؟

وما الذي يدعونا إلى "التَّمرُّد" على ثوابتنا، وقيمنا، ومبادئنا، وأعرافنا ؟

هل وجدنا خللاً فيها طيلة خمسة عشر قرناً ؟

وهل يصحّ لنا أن نتمرَّد عليها لا لشيء إلاَّ لكي نركب موجة "الحدايثة" ونسير في رحلتها الفاشلة، حاملين مجاديفها المهترئة المتكسِّرة.

لماذا سعت تلك الثُّلَّة من أنصار الحداثة إلى تقديم "الحداثة" على أنَّها الوجه الأمثل "للحداثة" و"التَّطوير" و"التَّحديث" ؟ وهو أبعد ما تكون عنه الحداثة(١).

بل لماذا زعمت تلك الثُّلَّة أنَّ الحداثة الفكريَّة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحداثة الزِّراعيَّة والصِّناعيَّة، وأنها تنهض معاً أو تخبو معاً، وهذه مغالطة واضحة، وافتئات على الحقيقة، ومرادها الرَّفع من شأن الحداثة وجعلها أساس كلِّ تقدُّم وازدهار؛ لتلقى الحداثة الفكريَّة قبولا ورواجاً لدى جميع أفراد المجتمع(٢). ولقد أقامت الأمم القديمة والحديثة حضارتها وصناعتها،

(١) انظر: الحداثة تعود. د. حلمي القاعود ص ٢٠.

(٢) انظر: الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها، د. سعيد بن ناصر الغامدي

واختراعاتها، وتقدُّمها العلمي دون أن تقرن ذلك بتيَّار فكري له آفاته التي تصطدم مع العقل والنَّقل.

لقد كان من أخطر ما جلبته الحداثة إلى واقعنا الثَّقافي والفكريّ هو تلك الدَّعوات التي تنادي برفض الخطاب الدِّيني، واعتباره مصدراً للتأخُّر والتخلُّف، وأنّ "الحداثة" لا تستقيم معه مطلقاً، وهذه هي الدِّراسة التي أقام عليها الباحث المغربي الدكتور مصطفى خُلال نظرياته ورؤاه الحداثيَّة من خلال كتابه "الحداثة ونقد الأدلوجة الأُصوليَّة" حيث رأى أن من أسباب تأخُّر الحداثة في المجتمعات الإسلامية هو ما يسمِّه بـ "سيادة الفهم الدِّينيّ الخطابيّ" يقول: "تأخذ "الحداثة" معنى مضبَّباً في المجتمعات المسلمة، والسَّبب هو سيادة الفهم الدِّيني الخطابي على مجموع أنماط الحياة، فالقبول بالحداثة أو رفضها يتأسَّس دوما على تصوُّر قائم بمرجعيَّة دينيَّة خطابيَّة، هكذا يعتبر المنظِّر "الماضوي" (=الأصولي التمامي) والمنظِّر الأصولي التُّراثي أنّ الحداثة لا تستقيم إلا بالتَّواصل مع التُّراث، والتُّراث هنا هو دائما دينيٌّ في معظم مكوِّناته، وهكذا يستمرُّ "الوصيُّ" التَّقليدي على الدِّين وصيَّاً على جميع هؤلاء، سواءً وعوا ذلك أم لم يعوه، وهم في الغالب يعونه"(١).

هكذا يضع الباحث إشكاليَّة "الحداثة" المعاصرة والعقبات التي واجهتها في رحلتها إلى أدبنا الحديث،فقد اصطدمت بأمرين أساسين كلاهما في غاية الخطورة، فأولهما: الخطاب الدَّيني المنبثق من التَّشريع السَّماويّ الذي أنزله الله تعالى في كتابه المبين على سيِّد الخلق – صلى الله عليه وسلَّم- فهو المرجع الذي لا محيد عنه، وهو المصدر الذي اعتمدته أمَّة الإسلام منذ بزوغ فجر

٢٠١/١.

(١) الحداثة ونقد الأدلوجة الأصولية د. مصطفى خُلال ص ٧٨.

الإسلام.

وثانيهما: وهو التُّراث، الذي وصفه بأنَّه "دينيٌّ في معظم مكوِّناته، وهذا المنجز التُّراثيّ الذي بناه الأسلاف طيلة خمسة عشر قرناً، وضمَّنوه فكرهم، وثقافتهم، وحضارتهم، وقيمهم، وأصالتهم، وتاريخهم الإسلامي المجيد.

ولا يقبل عاقل بالتَّخلِّي عنه أو الإساءة إليه، أو الانتقاص منه، أو الدَّعوة إلى تحييده جانباً، واعتباره جزءاً من الماضي، الذي يصفه الحداثيُّون بالجمود والتَّخلُّف والرَّجعيَّة.

لأجل ذلك جزم د. مصطفى خُلال باستحالة تعايش هذا التَّيَّار الرَّافض الثَّائر مع التُّراث العربي لعلاقة ضدِّيَّة، أو الإذعان للخطاب الدِّيني وتقديره، وقبوله مصدراً شرعيَّاً لا مناص عنه.

بل لقد ذهب إلى أبعد من ذلك حين نادى بالفصل بين المجتمع والدِّين يقول: "من ناحية المبدأ يستحيل أن يقوم مجتمع حداثي بمنظور إلهي للسُّلطة وللفرد وللمجتمع"(١).

إنَّه يضع باختصار حدَّاً فاصلا لحياة "الحداثة" وديمومتها أو انقراضها، فهي لا يمكن أن تعيش وتحيا في مجتمع يحتكم إلى "الوحي الإلهي" في كل شؤونه، وهو تحديداً المجتمع المسلم، الذي لا يرى سعادة له في هذه الحياة، ولا عزَّاً ولا قيمةً دنيويَّة أو أخرويَّة إلا بالإسلام، والإذعان لأوامره، والتَّمسُّك بقيمه وآدابه ومبادئه السَّمحة.

وبعد أن سلَّم الباحث بإقصاء الحداثة في المجتمعات المسلمة، وأنَّه لا يمكن أن تعيش الحداثة في مجتمع يحتكم إلى النَّصّ الإلهي، وبدلا من أن

(١)الحداثة ونقد الأدلوجة الأصولية ص ٧٨-٧٩.

يسعى إلى نقد التَّيَّار الحداثيّ الجارف الذي يصطدم مع المعتقدات الدينيَّة، ويبيِّن فشله وخطره فإنَّنا نراه يطالب الخطاب الإسلامي والهويَّة الإسلامية أن تجري بعض التَّعديلات في منهجها؛ لأجل قبوله والتَّسامح معه على علاَّته، لا الانغلاق دونه، يقول: "إنَّ الهويَّة الإسلاميَّة تُفصح عن معتقد مشترك، يتضمَّن تعديلات، مثله في ذلك مثل كافَّة الهويَّات العقائديَّة، حيث تتكوَّن هذه الهويَّة من مكوِّنين: مكوِّن متعال، منغلق، ولا متسامح، ويمثِّله أساساً "الوصيُّون" على الدِّين، وينبغي الاعتراف بأنَّه يخلق لنفسه تربة خصيبة داخل المجموعات المسلمة أنَّى عاشت وتعيش. ومكوِّن بسيطو شعبي، عامِّي، متسامح إلى أقصى حد، ومنفتح بلا حدود، يتقبَّل أنماط الحياة الجديدة بعد تردُّد لا يطول إلا نادراً، ثم ما يلبث أن يسايرها دون أن يدور بخلده أن يغيِّر هويَّته، وهذا مالا يدركه "المنغلقون" العالمون، الذين يعتقدون وَهْماً أن الفضل في هذا الرُّسوخ إنَّما يعود لهم، ومصدر عماهم يكمن في جهلهم، بعمق الأثر النَّفسي، واللاشعوري لتكوِّن الفرد والجماعة"(١).

وهو بهذا الهجوم على الدُّعاة والعلماء والغيورين على الدَّعوة، حيث يصفهم مرَّة بأنَّهم "وصيُّون"، وأنَّ الواحد منهم "متعال" و"منغلق" و"غير متسامح"، وهم في نظره "جهَّال" قد أصابهم "العمى" وأنَّهم "منغلقون"..إلخ في حين أنَّه في جانب آخر يصف المتقبِّلين لنهج "الحداثة" بأنَّهم "بسطاء" و" متسامحون" "ومفتحون بلا حدود" و"مسايرون" وأنَّ الواحد منهم يتقبَّل ما يقوله الآخرون ببساطة –رغم خطورته– دون أن يدور بخلده أنَّه يغيِّر هويَّته.

إنَّه بهذا الهجوم الشَّرس على العلماء والدُّعاة، ووصفهم بأبشع النُّعوت، فإنَّه يضع صورة أخرى في مقابلهم للبسطاء والسُّذَّج والعوام، الذين يسايرون جميع

(١) الحداثة ونقد الأدلوجة الأصولية د. مصطفى خُلال ص ٩٣.

الأحوال، ولا يضيرهم أن يغيِّروا هويَّتهم.. ويهدف من وراء ذلك إلى القول بأنَّه "لا خوف على الهويَّة من الضَّياع سواءً وجد العلماء والدُّعاة أو لم يوجدوا، داعياً صراحة في مثل هذه الأحوال إلى "العلمانيَّة" التي يرى أنَّها لا تمثِّل خطراً على المسملين يقول: "والنَّتيجة أنَّه لا خوف على الهويَّة بهذا المعنى المتقدِّم من "الضَّياع"، وهكذا لا تمثِّل "العلمانيَّة" حادثة خطيرةً عند عامَّة المسلمين، مثلما يتصوَّرها "الشَّيخ المتشدِّد"، بل إنَّ الفرد يتعامل معها بإيجابيَّة فطريَّة وسواءً تبنَّاها الحاكم، ويسَّر لها سراديب الدَّولة، أو تبنَّتها أقرب التَّنظيمات التَّقليديَّة في حياتهم، فهي مجرَّد وسيلة عندهم للاندماج في حياة العصر"(١).

كلُّ هذا التَّنظير لتمرير "العلمانيَّة" من أجل أن يتمّ بعدها تمرير "الحداثة" إلى الثَّقافة العربيَّة، ليتمَّ المسخ الثَّقافي على هذا الحال، وتشيع الفوضى، وتسود "العلمانيَّة" المقيتة على نحو يسيئ للمنهج الإسلامي القويم، والمبادئ الأخلاقية، والقيم النَّبيلة، التي يتفيَّأ المسلم ظلالها، وينعم كلُّ مجتمع تسود فيه.

لكنَّ د. مصطفى خُلال الذي يرى في الحداثة أنَّها النَّسق القادر على استيعاب كافَّة الهويَّات(٢)، ولا يزال مصرَّاً على رؤيته السَّابقة التي ترى في نشر "العلمانيَّة" في أوساط الشُّعوب العربيَّة الحلَّ الأمثل لتمرير الحداثة الفكريَّة، بل ويعرض في طريقة نشر "العلمانيَّة" أمثلة سخيفة ساذجة، يردُّها كلُّ ذي عقل، ويمجُّها كلُّ ذي ذوق، يقول في مؤلَّفه "الحداثة والأدلوجة الأصوليَّة": "لا يتساءل المسلم "الشَّعبي" عن التِّلفاز: هل هو حرام أو حلال ؟ فسرعان ما يكتشف أنَّ هذا التِّلفاز هو طريقة إلى السَّماع لدروس الدِّين، كما هو طريقة إلى تتبُّع الحملات الانتخابية "العلمانيَّة"، إنَّه لا يعي هذه

(١) الحداثة ونقد الأدلوجة الأصوليَّة ص ٩٣-٩٤.

(٢) انظر: المرجع السَّابق ص ٩٤.

"العلمانيَّة" بل يعيشها فقط، ولو شرعت له "العلمانيَّة" صدفةً، وقيل له: إنَّها "كافرة"، و"زنديقة" و"خطر على الأسرة" و"مشجِّعة على البغاء" و"تفصل الدِّين عن الدَّولة"، لأجاب: أعوذ بالله من كلّ هذا !! لماذا هي هنا ؟ أزيلوها !! لكن من أين لأيَّة قوَّة في العالم مهما صَلُبت أن تزيلها ؟ إنَّها تزحف، تزحف، تزحف كلَّ وقت، كلَّ لحظة، كلَّ دورة في الزَّمان(١)".

ومع هذا يقرِّر د. مصطفى خلال في مؤلَّفه أنَّ تيَّار الحداثة الذي يقوم على التَّمرُّد على الثَّوابت والأعراف ولا يمكن له أن يتغلغل في الثَّقافة العربيَّة الأصيلة إلاَّ بقبول التَّجاوزات التي تتعارض أصلا مع النَّصّ الشَّرعي، والقيم الاجتماعية. يقول:"تبيَّن لنا ونحن نستقصي مفهوم "الحداثة" من خلال معانيها أولاً، وتقابلات تلغيها "الحداثة" ثانياً، أنَّها تتعارض كلِّيَّاً مع الصُّورة التي ينتظم بموجبها المجتمع بناء على "سلطة غيبيَّة" إنَّ المجتمع البشري، وتطوُّره الضروري يخضع لبناءات وضعيَّة قابلة للتَّجاوز ضرورةً وحتماً، وهذا أول مبدأ تعريفي للحداثة"(٢).

ولا فرق بين "الحداثات" في تصوُّره في أي بلد كانت في المشرق أو المغرب، فهدف "الحداثة" واحد، وهي تنطلق من أيديولوجيا موحَّدة، ولكنَّه، يوصي "الحداثيِّين بأن يكونوا "أذكياء" في خوض معركة التَّجديد، ومقاومة الأصوليَّة الدِّينيَّة التي تقف سدَّاً منيعاً في طريقهم. يقول: "إنَّ الحداثة في الغرب أو في اليابان، أو في الصِّين أو في الهند أو في ماليزيا، أو في المغرب هي الحداثة. أمَّا الإيديولوجيا "الحداثيَّة" فتستقيم طبقاً لمستلزمات الجداليَّة الخاصَّة بكلِّ بلد.. ولذلك فإنَّ ذكاءً يلزم "الحداثيِّين" في خوض معركة التَّحديث؛ لمقاومة نهج الإعاقة التي تمارسها الأصوليَّة التَّماميَّة. ولكنَّ هذا الأمر العظيم

(١) الحداثة ونقد الأدلوجة الأصوليَّة ص ٩٤.

(٢) المرجع السَّابق ص ١٠٦.

لا يُتوصَّل إليه بالتَّخمين كما يقول "ديكار"، بل يُتوصَّل إليه بمنهج صارم"[١].

إنَّ كتاب "الحداثة ونقد الأدلوجة الأصوليَّة" مؤلَّف مليء بالمغالطات الأدبيَّة والنقديَّة، والتَّجاوزات الشَّرعيَّة التي لا يقرُّها عقل ولا دين، إنَّ الكتاب يقوم في مجمله يقوم على نقد مريض للنُّصوص الشَّرعيَّة، وهجمة ظالمة شعواء على العلماء، والدُّعاة، والغيورين على الدِّين الإسلامي الحنيف.

وفي أقوال أقطاب الحداثة ما يندى له الجبين من تلك الآراء التي تحمل تجاوزاً في ثقافتنا وآدابنا، بل وخروجا سافراً عن العقيدة الإسلاميَّة، وتطاولاً على الذَّات الإلهيَّة، حيث يقول أدونيس – أحمد سعيد علي – في كتابه "مقدِّمة للشِّعر العربيّ": " الله في التَّصوُّر الإسلامي التَّقليدي نقطة ثابتة، متعالية، منفصلة عن الإنسان. التَّصوُّف "ذَوَّب" ثبات الألوهيَّة، جعله حركة في النَّفس، في أغوارها، أزال الحاجز بينه وبين الإنسان. المتصوِّف يحيا في سُكر يُسكر بدوره العالم، وهذا السُّكر نابع من قدرته الكامنة على أن يكون هو والله واحداً. صارت المعجزة تتحرك بين يديه"[٢].

سبحان الله العظيم. سبحان رب العرش العظيم. إنَّه يجانب الأدب حتى مع لفظ الجلالة – تقدَّس في علاه–، فيهوي في وحول، ويسقط في رجس، ويسفُّ أيَّما إسفاف، إنَّ كل عبارة تستدعي وقفة مستقلّة للردّ عليها، وبيان الإسفاف الذي وصل إليه كثير من الحداثيّين في كثير من مقولاتهم وتجاوزاتهم المقيتة[٣].

---

(١)الحداثة ونقد الأدلوجة الأصولية ص ١٠٩.

(٢) مقدِّمة للشِّعر العربي لأدونيس ص ١٣١.

(٣) راجع مثلاً : الحداثة – مناقشة هادئة لقضيَّة ساخنة – ص ١٥٠، الحداثة في

❁❁❁❁

منظور إيماني د. عدنان النحوي ص ١٢١ -١٢٢.

المبحث الثَّالث:
أثر الحداثة في الشِّعر الحديث

لقد أحدثت الحداثة هزَّة عنيفة وشرخاً واضحاً في صرح ثقافتنا المعاصرة وأدبنا الحديث، فحين دخلت أشعرت كوكبة من المثقَّفين أنَّها تحمل في يدها قنديلا سوف يضيئ لهم الطَّريق، ويقودهم إلى مجالات رحبة من الإبداع، ولكن سرعان ما تحوَّل ذلك القنديل إلى حربة مسمومة قاتلة، تشكك في المعتقدات وتتطاول عليها، وتطعن في الثَّوابت، وتدعو إلى القفز عليها، وتنادي بالثَّورة على كلّ ما هو أصيل من ثقافتنا وآدابنا وتنقلب عليه، حيث تنادي برفض التُّراث، وتدعو إلى تنحيته جانباً وهدمه باعتباره جزءاً من الماضي، الذي تصفه بالجمود والتَّخلُّف والرَّجعيَّة.

لقد نادت "الحداثة" المثقَّف المعاصر إلى الانقطاع المعرفيّ والقطيعة مع الماضي بل أشكاله وصوره(١)، وفي مقدِّمة ذلك "التُّراث العربي" الذي رمته بأبشع النُّعوت، وجعلت في مقدِّمة أجندتها الانقلاب عليه، والانسلاخ عن كلّ مظهر من مظاهره(٢).

إنَّ من يتتبَّع "البعد الفكريّ" في رحلة الحداثة إلى أدبنا الحديث يجده هو مناط القضيَّة ومربط الفرس –كما يقولون– إنَّه أهمُّ قضيَّة انشغل بها

---

(١) انظر: الحداثة الشِّعريَّة العربيَّة بين الإبداع والتَّنظير والنَّقد د. خليل أبو جهجهة ص ٢٦٨.

(٢) انظر: قصيدة (لا) قراءة في شعر التَّمرُّد والخروج لأحمد عبد المعطي حجازي ص ٥.

الحداثيُّون منذ البدايات الأولى التي أدخلوا فيها مصطلح "الحداثة" إلى أدبنا، ولم يجدوا تعريفاً محدَّدا لهذا المصطلح، أو ركيزةً أساسيَّة تُبيِّن أهدافه، وثوابته، ومنطلقاته، التي يمكن أن يقبلها جمهور المثقَّفين، ولذلك اختلفوا في تعريف المصطلح أيَّما اختلاف، وذهب كل واحد منهم يخطِّط، وينظِّر ويضع الأفكار التي تناسب مذهبه، ونزاعاته، ونزواته، ولذا فلا يتَّفق اثنان في إثبات "ماهيَّة الحداثة" ولا في تحديد ملامحها ومنطلقاتها وأسسها المنهجيَّة، وإنَّما يجد المثقَّف العربي نفسه أمام مصطلحات شائكة لاحصر لها، تبدأ "بالرَّفض" و"القطيعة" و"التَّمرُّد" و"الثَّورة" و"التَّفجير" و"الشَّكّ" و"الخروج عن المألوف"..إلخ.

وتنتهي بالاصطدام بالثَّوابت الدينيَّة، والنَّيل من المقدَّسات الإسلامية، والقفز فوق أسوار القيم، والأخلاق، والمبادئ، والأعراف، والدَّعوة إلى الحرِّيَّة المطلقة التي يباح فيها الفساد، والانحلال، والتهتُّك، والمجون، والإباحيَّة.

وهذا إن دلّ على شيء يدلُّ على ماذا ؟

وهل هذا "التَّجديد" الذي يزعمه بعض الحداثيِّين هو تجديد في "الشَّكل" أو في "الأسلوب" ؟ أم هو تجديد في الصُّورة الفنِّيَّة ؟

والإجابة تأتي: لا.

إنَّه – عزيزي القارئ – تجديد في "الفكر" !! وتغيير في "المعارف"!! وتحديث في "المسلَّمات" !! وطريقة جديدة في النَّيل من "الثَّوابت"!! وزعزعة "القيم" إنَّها باختصار "الحداثة الفكريَّة" التي تهدف إلى تغيير الفكر العربي، وتغيير ما هو ثابت ومألوف، وكسر الأنماط والأعراف الاجتماعية السَّائدة، والخروج من دائرة الالتزام بالنَّصِّ الشَّرعي والمعتقد الإيماني إلى دائرة التَّحرُّر والحريَّة المطلقة، التي تكسر القواعد الرَّاسخة، وتتجاوز النُّظم والثَّوابت السائدة. وهي الأُسس والمنطلقات التي عبَّر عنها أدونيس – أحمد سعيد علي – في قوله: "الأدباء العرب لن يُبدعوا إلاّ إذا حرَّروا أفكارهم من التَّقيُّد بالدِّين والنُّظم السَّائدة في المجتمع سواءً أكانت اجتماعيَّة أو وطنيَّة أو قوميَّة..

فالأدب للأدب.. أي الأدب "اللا معقول" أو اللا واقع" أو "اللا حياتي""[١].

ويحتفي أدونيس "بالإلحاد" في كتابه "الثَّابت والمتحوِّل"، فهو يرى "أنَّ منطق الإلحاد هنا يعني العودة إلى الإنسان في طبيعته الأصليَّة وإلى الإيمان به من حيث هو إنسان، فما دام الإنسان تابعا للغيب لا يمكن بحسب هذا المنطق أن يكون إنسانا. هكذا يقدِّم الإلحاد نفسه كثورة تهدف إلى أن تهدم سلطة يمارسها الإنسان باسم "الوحي" على الإنسان، أو يمارسها باسم الغيب على الواقع، ومن هنا يقدِّم الإلحاد نفسه كنواة لحية المستقبل، وفكر المستقبل مقابل التَّديُّن، الذي يردُّ الحاضر كلَّه فكراً وعملاً، والمستقبل كلّه إلى الماضي"[٢]. ويصل أدونيس إلى هدفه من وراء ذلك إلى القول بأنه: "لا بدَّ إذن من إزالة الدِّين من المجتمع، وإقامة العقل"[٣].

وتشير خالدة سعيدة إلى حتميَّة الصِّراع مع المعتقدات من أجل بلورة الحداثة، وإنجاح منهجها الفكري. تقول: "إنَّ الحداثة أكثر من التَّجديد، فهي ترتبط بصورة عامّة بالانزياح المتسارع في المعارف وأنماط العلاقات، والانفتاح على نحو يستتبع صراعاً مع المعتقدات، أي المعارف القديمة التي تحوَّلت بفعل ثباتها إلى معتقدات"[٤].

لأجل ذلك فقد ظهر في شعرنا الحديث اتِّجاه نحو العبث بالمفهومات الدِّينيَّة العليا، والاستخفاف بمقام الألوهيَّة، والتَّطاول عليها في وقاحة كبيرة،

---

(١) مقدِّمة للشِّعر العربيّ لأدونيس ص ١٦٩.

(٢) الثَّابت والمتحوِّل لأدونيس ١/٨٩-٩٠.

(٣) المرجع السَّابق ١/٩٠.

(٤) الحداثة في الشعر العربي المعاصر بين التَّنظير والتَّطبيق ص ١٦٦.

وتصوير القدر على أنَّه ظلم محض، يعاند الرَّغبات البشريَّة المشروعة، ويحبس لحظات السَّعادة عن البشر، بل والتطاول على القيم الإسلاميَّة، والآداب الفاضلة، والتَّمرُّد على الثَّوابت الدِّينيَّة، والإساءة إليها.

ولولا أنَّ القاعدة الشَّرعيَّة ترفع عن الباحث الحظر، وتطمئنه إلى أنَّ "ناقل الكفر ليس بكافر"، ولولا الحاجة إلى نماذج تبيِّن سوء هذا الذي كتبه بعض الشُّعراء في أدبنا الحديث لوجدت حرجاً كبيراً في تقديم هذه النَّماذج، التي تمتلئ بالتَّطاول على العقيدة الإسلاميَّة وعلى الذَّات الإلهيَّة – تعالى الله عمَّا يقولون علوَّاً كبيراً–.

ومن أولئك عبد الوهَّاب البيَّاتي الذي يقول في ديوانه:

"اللَّه في مديتي تبيعه اليهود!
اللَّه في مدينتي مشرَّد طريد!
أراده الغزاة أن يكون
لهم أجيراً شاعراً قوَّاد
يخدع في قيثاره المذهَّب العباد
لكنَّه أصيب بالجنون!! "(١).

أستغفر الله العظيم... وتعالى الله عمَّا يقولون علوَّاً كبيراً.

ويجترئ الشَّاعر عبد العزيز المقالح على الله تعالى، ويقذفه بشتائم وتهكُّمات، مستخدما أقذع الألفاظ وأخبثها، يقول:

"صار اللَّه رماداً
صنماً
رُعباً في كفِّ الجلاَّدين

(١) ديوان عبد الوهّاب البيَّاتي ١/١١٩.

أرضاً تتورَّم بالبترول
حقلا ينبت سبحات وعمائم
بين الرَّبِّ الأغنية الثَّورة
والرَّبِّ القادم من هوليود
في أشرطة التَّسجيل
في رُزَم الدُّولارات
رب القهر الطَّبيعي
ماذا تختار ؟
أختار اللَّه .. الأغنية الثَّورة"(١).

تعالى اللَّه عمَّا يقول علوًّا كبيراً.

أمَّا زعيم الحداثة أدونيس فله في هذا المجال الدَّنس أوسع باع، وأخطر مقال، فهو لم يكتف بالتَّنظير "للحداثة"، وإعلان منهجها الإلحادي، وأنَّه يقوم على تنحية "الدِّين"، والقفز على الثَّوابت، بل تعدَّاه إلى التَّطبيق الشِّعري في ديوانه، وذلك من خلال الإساءة إلى الذَّات الإلهيَّة، والتَّطاول عليها بأبشع النُّعوت. يقول:

"من أنت ؟ من تختار يا مهيار ؟
أنَّى اتَّجهت، اللَّه أو هاوية الشَّيطان ؟
هاوية تذهب أو هاوية تجيء
والعالم اختيار
لا الله اختار ولا الشَّيطان

(١) الكتابة بسيف الثَّائر على بن الفضل لعبد العزيز المقالح ص ٥-٦.

كلاهما يُغلق لي عينيَّ
هل أُبدل الجدار بالجدار
وحيرتي حيرة من يضيء
حيرة من يعرف كلّ شيء"(١).

ويواصل أدونيس عباراته الإلحادية بكلِّ استخفاف، ويكرِّس منهجه الانفصالي عن التُّراث الإسلامي، ويعمِّق معه القطيعة، لينفصل عن كلّ الثَّوابت، ويتمرَّد على كلِّ مقدَّس، ومن ذلك الذَّات الإلهية التي أمعن في التطاول عليها، والاستخفاف بها، يقول في مجموعته الشِّعرية:

"أحرق ميراثي، أقول أرضي
بكر، ولا قبور في شبابي
أعبر فوق الله والشَّيطان
دربي أنا أبعد من دروب
دروب الله والشّيطان"(٢).

وشاعر حداثيٌّ آخر يلوك نتن الحداثة، وينسلخ من كلّ معتقد وهويَّة، ويتطاول على الذّات الإلهيَّة، ويتهكَّم ويسخر ممَّن خلقه من نطفة، وأوجده في هذه الحياة، وأنعم عليه بنعمه الكثيرة التي لا تعدُّ ولا تُحصى.. ذلكم هو الشَّاعر محمود عدوان الذي يقول في مجموعته الشِّعرية:

"ويباغتني اللّه في "نعمةٍ"
تنتقي صفوة القوم

(١) الأعمال الشِّعرية الكاملة لأدونيس ١/٢٨٨.
(٢) المرجع السَّابق ١/٢٨٩.

كيف أصدِّق أن لدى الله نبع "حنانٍ"
ولا يتطلَّع يوماً إلى قهرنا ؟
ولا يرى البَشَرَ السَّاكنين "زرائب"
والآكلات بأثدائهِنَّ بلا شِبَع
حيث صَنْعة عُهْرِ
أَمَانٌ من الفَقْرِ
والموت جوعاً
في مدن من مَنَاسِف" (١).

إلى أن يقول واصفاً خالقه – جلَّ وعلا – بأبشع الصفات، ومتمرِّداً على كلِّ القيم، وممتطياً صهوة الإلحاد والفجور:

"إلهي الذي قيل لي إنه صاغني مثله
كنت أرغب لوصغته شبهي
كنت أسكنه وطناً
يتفنَّنُ كيف سيبكيه في كلِّ يومٍ
يُشَكِّك في خلقهِ
ويطالبُه بأن يصفِّق للظُّلم
فتبارك هذا الإله
الذي كان يرفض أن يتمرَّغ في عشينا
لم يكن يُتقن اللعب فوق المزابل
لم يعرف السَّير في قسوة الوعر

(١) الأعمال الشِّعرية لممدوح عدوان: ١٧/٢

لم يعرف النَّوم جوعاً
ولم يعطنا ما يواجه هذا البلاء..." (١).

إلى آخر هذا الكلام الخبيث المليئ بالفجور والاستهزاء والسُّخريَّة بالله الخالق العظيم، تقدَّس في علاه.

أما بدر شاكر السَّيَّاب فإنه يتطاول على المقدّسات باسم "الحداثة الفكريّة" التي انسلخت من العقيدة الإسلامية الصَّحيحة، وارتمت في أحضان الإلحاد، حيث يمعن في السُّخرية بالخالق – جلَّ في علاه– وأسمائه، وصفاته. يقول:

"فنحن جميعاً أموات
أنا ومحمَّد والله
وهذا قبرنا: أنقاض مئذنة معفَّرة
عليها يكتب اسم محمَّد والله
على كِسَر مبعثرة
من الآجر والفخَّار
فيا قبر الإله على النَّهار
إله الكعبة الجبَّار
بدرع أمس في ذي قار
بدرع من دم النُّعمان في حافاتها آثار
إله محمَّد وإله آبائي من الغُرْبِ
تراءى في جبال الرِّيف يحمل راية الثُّوَّار..." (٢).

---

(١)الأعمال الشِّعرية لممدوح عدوان ١٨/٢.

(٢) ديوان بدر شاكر السَّيَّاب ص ٣٩٥-٣٩٦.

إلى آخر هذا الكلام السَّاقط الخبيث الممتلئ بالفجور والسُّخرية من الله الخالق العظيم، ربّ الأرباب، وفاطر الأرض والسَّموات، ومن نبيِّه الأمين سيِّد المرسلين محمَّد بن عبد الله عليه أفضل الصَّلاة وأزكى التَّسليم.

ومن يتتبّع الانحراف الفكري والعقدي الذي قامت عليه "الحداثة" يجد أنَّ التَّطاولَ على الذَّات الإلهيَّة لم يتوقَّف عند حدٍّ، بل ازداد سعاره في دواوين الشُّعراء الحداثيِّين(١) كاشفاً كل الأقنعة التي يتقنَّعون بها حينما يُدْعَون للمواجهة والمكاشفة.

أما الإساءة إلى رسل الله تعالى الكرام – عليهم الصَّلاة والسَّلام– فأمر واضح في شعر الحداثة، ولا يخفى على متتبِّع هذا الفكر الحداثيِّ المنحرف، الذي ما انفكَّ يعلن عن عداوته للنُّبوَّة والأنبياء الكرام، واصفاً إياهم بـ" الصَّغار" و"حفَّاظ الأساطير"، وهو المعنى الذي عبَّر عنه الشاعر سميح القاسم في قوله:

" أيُّ تِنِّينٍ خُرَافيُّ الأُلُوهَة
سَمَلَ الأَعْيُنَ في تاريخنا
أدمى وجوهه!!

(١) راجع ذلك في: الأعمال الشعرية لأدونيس ٢٥/١، ٢٨٦/١، ٢٨٣/٢، ٢١٣/٢-٢١٤، ٢٨٦/٢، ٣٥٩/٢، الأعمال الشعرية ليوسف الخال ص٢٨١، ديوان عبد العزيز المقالح ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٧٠، الآثار الكاملة لمحمد الماغوط ص٢٢٧-٢٢٨، ديوان محمود درويش ص٦٨-٦٩، ٣٤٣، ديوان سميح القاسم ٥٢، ٦٧، ١٩٥، ٤٥١، ٤٦٠، ٤٧٤، ديوان الفيتوري١٩٨/١، الأعمال الشعرية لنزار قباني٥٩/١، ٤٢٦/١، ٧٣/٢، ١٣٣/٢، ٣٥١/٢.

يا يتامى فقدوا في بيتهم طعم الحياة!
يا صغار الأنبياء!
يا روَاةً حفظوا كلَّ أساطير السَّماء
شيَّدوا البرج فقد نادى الإله
وبكى "نوح" على الطُّوفان.. طوفان الدِّماء!!" (١).

ويتطاول الشاعر يوسف الخال على مقام النبوة، حيث يتعرَّض لنبيّ الله سليمان – عليه السلام– بما لا يليق من الكلام الساقط، الممتلئ بالفجور؛ إذ يتحدَّث على لسان إحدى العاهرات قائلاً:

"ولو رآني سليمان
أما جُنَّ قلبه بدلالي
وارتمى خاشعاً يقبِّل وجه
الأرض من موطئي وظلِّ نعالي"(٢)

ما أبشع هذا الكلام وأحقره وأفجره، وهو يتعرض لنبي من أنبياء الله تعالى، أعزّه الله وشرَّفه برسالته، وهدى به أمته.

ومن التَّطاول أيضاً على مقام النُّبوَّة والعقيدة الإسلاميَّة، والإساءة إلى الثَّوابت الإيمانيَّة ما ظهر في شعر محمد الفيتوري في أكثر من موضع من ديوانه، منها قوله:

"ولئنَّ القَدَرَ السَّيِّدَ عَبْدٌ يَتَأَلَّه
والنُّبوَّاتُ مظلَّة
والدِّيانات تعلَّة

(١)ديوان سميح القاسم ص٥٧٢.
(٢) الأعمال الشِّعرية ليوسف الخال ص١٢٧.

هَبَّ من كل ضريح في بلادي
كُلُّ مَيْتٍ مندثر
كُلُّ روحٍ منكسر
ناقماً على البشر
كلُّ أعداء البشر
كافراً بالسماء، والقضاء والقدر" (١).

لقد طال هذا التَّطاول الشَّعائر الدينيَّة التي يؤدِّيها المسلم، ومنها العبادات كصلاة الجمعة، واستقبال القبلة إلى البيت الحرام، واستلام الحجر الأسود، حيث يعرض لذلك أدونيس – أحمد سعيد علي– بمزيد من السُّخرية والاستهزاء، يقول في قصيدته التي أسماها " الإله الميِّت":

"اليوم حرقت سراب السَّبت
سراب "الجمعة"
اليوم طرحت قناع "البيت"
وبدَّلت الحجر" الأعمى"
إله الأيَّام السَّبعة
بإله ميتٍ" (٢)

تعالى الله عمَّا يقولون علوًّاً كبيراً.

إنَّها حمأة اللوثة الفكريَّة التي "الحداثة"، ونقلتها من الآداب الأوروبيَّة المنحرفة المغرقة في المادِّيَّة والتَّيَّارات المنحرفة إلى شعرنا الحديث، فأثَّرت فيه

(١) ديوان الفيتوري ١١٣/١، وانظر قصائد أخرى تحمل الإساءة أيضاً في ديوانه: ٤٥٨/١–٤٥٩، ٥٨٣/١.

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة لأدونيس ٣٤٦/١

أبشع تأثير، وأقامت فيه مجالات واسعة للانحراف والسُّقوط، والتَّطاول على المعتقدات الدِّينيَّة، والقفز على الثَّوابت الإيمانيَّة، والقيم النَّبيلة.

وما أوردته في هذا البحث المتواضع هو غيض من فيض، وقليل من كثير، ممَّا تموج به السَّاحة الأدبيَّة من انحراف الحداثيِّين، ونشرهم للفكر السَّاقط، المصادم للعقيدة الإسلاميَّة، والثَّوابت الإيمانيَّة، والأخلاق الفاضلة.

والحقُّ أن هناك أشعارًا أخرى أشدّ جرأةً، وأكثر خبثاً وسقوطاً وتطاولاً وتمرُّداً على أصول العقيدة، وسخريةً من الذَّات الإلهيَّة لم أعرضها في البحث لشدَّة ما فيها من قبح وعفن وسقوط مدوِّي، واكتفيت بالإشارة إلى موضع تلك الأشعار في مصادرها في الهامش[1].

❁❁❁❁

(١) انظر ص (٣١) من البحث.

المبحث الرَّابع:
سقوط الحداثة

لقد ارتكست "الحداثة" – على نحو ما تقدَّم – إلى درجة من الإسفاف والسُّقوط لم يشهد لها أدبنا العربي عبر عصوره المختلفة مثيلاً، ذلك أنَّها أوغلت في الإساءة إلى المعتقدات الدِّينيَّة والشَّعائر الإسلاميَّة، وشتم الذَّات الإلهيَّة، والتَّطاول عليها بشكل شنيع لم نسمع مثله حتَّى في العصور الموغلة في ظلام الجاهليَّة، فإنَّنا لم نجد شاعراً "جاهليَّاً" عاش في عصر ما قبل الإسلام تجرَّأ في شعره، فسبَّ إلهه، وسخر من خالقه ومولاه كما فعل الجاهليُّون المعاصرون من أتباع مدرسة "الحداثة الغربيَّة".

وهذا ما يُظهر – في تصوُّري – حقيقة ناصعة جليَّة، لا مجال فيها للشكّ أنَّ "الجاهليَّة الأولى" أحسن حالاً من "الجاهليَّة المعاصرة" جاهليَّة القرن العشرين، وأنَّ الجاهليِّين الأوائل أفضل حالاً، وأكمل خلقاً وفكراً ومنطقاً من الجاهليِّين المعاصرين "الحداثيِّين"، الذين بلغوا من الانحطاط الخلقي، والهبوط النَّفسي، والشُّذوذ العقلي، والهوس الفكر درجةً لم تبلغها مدرسة أو جماعة في عصر من عصور الأدب، حتَّى في أحلك العصور وأظلمها، وأشدّها تيهاً!!.

ويرى د. عبد العزيز حمُّودة أنَّ من أهمِّ أسباب فشل "الحداثة" هو ما قام به الحداثيُّون من انحياز للعقل الغربي بكلِّ تبعاته وعثراته، واتخاذ موقف القطيعة الاختيارية من تراثنا القديم كشرط لتحقيق التَّحديث. يقول: "لقد قام الحداثيُّون العرب في غمرة انبهارهم بإنجازات العقل الغربي في العصر الحديث باتخاذ موقف القطيعة الاختياريَّة والإراديَّة من تراثنا القديم كشرط لتحقيق التَّحديث "والحداثة"، وبذلك تحوَّل "الحداثيُّون" من التَّعلُّم إلى الاندماج دون أن يدركوا الخلاف أو يستشعروا الخطر، ودون أن يدركوا على وجه الدِّقَّة هو ما يريده الغرب في مرحلة اقتنع فيها بصحَّة مقولة "نهاية التَّاريخ"، مقولة

الصَّلف والغطرسة الغربيَّة التي ترى أنَّ النَّموذج الغربي قد وصل منتهاه واكتماله، وبذلك سهَّل بعض "الحداثيِّين" مهمَّة العقل الغربي في تحقيق السَّيطرة والهيمنة بحسن نيَّة"(١).

ويعدُّ كتاب "المرايا المحدَّبة من البنيويَّة إلى التَّفكيك" للدكتور عبد العزيز حمُّودة من أهمّ المصادر المعاصرة التي درست النَّقد الحداثي، وبخاصَّة ما يتعلَّق بالنَّقد البنيوي وكذا النَّقد التَّفكيكي، وقد أظهر فيه بوضوح مراوغة الحداثيِّين والتفافهم حول بعض المصطلحات الغربيَّة التي لم يكتب لها النَّجاح في أدبنا الحديث. يقول د. حمُّودة: "لقد طاردنا الحداثيُّون من منابع الحداثة الأصليَّة وفي عالمنا العربي بأفكار برَّاقة ومصطلح نقدي أكثر بريقاً وجذباً لسنوات طويلة، وقد أعمانا هذا البريق عن حقائق كثيرة أبرزها المراوغة المقصودة والغموض المتعمَّد، مما جعل "الحداثة" في نهاية الأمر ناديا لنخبة النُّخبة"(٢)، ومن ثمَّ فقد وجد فيها هؤلاء النُّخبويُّون فرصة لكسر كثير من الأسس الثَّابتة، ومحاولة التَّجديف في الأماكن المحذورة، كلُّ ذلك التَّخطِّي على حساب الواقع من أجل إيجاد واقع جديد لم تكتمل أطره، ولم تظهر ملامحه وقسماته بشكل يتوافق مع الرَّاسخ من تراثنا ونظريَّتنا الشِّعريَّة التي ارتضاها القدماء والمعاصرون. يقول د. مصطفى ناصف في مؤلِّفه "بعد الحداثة صوت وصدى": "المسافة بين نظريَّة الشِّعر السَّابقة ونظريَّة الشِّعر بعد الحداثة واسعة، بالأمس كان التَّوجُّه إلى باطن النَّفس وثرائها، واليوم كان التَّوجُّه إلى باطن النَّفس وبعثرتها، بالأمس كانت نظريَّة الشِّعر نظريَّة اكتشاف كنز الإنسان، اليوم لا كنز، ولا أهميَّة لشيء، بالأمس كانت العناية بفكرة النُّمو واليوم تسود العناية بفكرة التَّبدُّد، اليوم نظريَّة الشِّعر في خدمة الهوان،

(١) سقوط الحداثة لمحمَّد عبد الشَّافي القوصي ص ١١٧.

(٢) المرايا المحدَّبة من البنيويَّة إلى التَّفكيك د. عبد العزيز حمُّودة ص ٨.

واللامعقول، والتَّأبِّي على الفهم والاحتواء، اليوم تعلو كفَّة العناية بانتهاك النَّفس، ومعاملتها معاملة شيء من الأشياء، لقد أعلت نظريَّة الشِّعر اليوم من شأن الغموض، والالتواء، والسُّخرية، وأعلت من فكرة الظَّلام، وانتقلنا من نظريَّة الكلمة العريقة الجديدة إلى الكلمة التي لا عراقة لها. إنَّ نظريَّة الشِّعر بعد الحداثة ليست هي نظريَّة التَّاريخ الحيِّ، بل هي نظريَّة اقتلاع الجذور"(١).

لقد أصبح التَّشكيك في المعتقدات أمراً طبيعيَّاً، بل لقد غدت العقائد رجعيَّة، والسَّائد رجعي، والمتشابه وهم، وهذا ما كرَّس القطيعة، وجعل الحداثة تعني صداماً مع كلِّ ما هو مؤسَّس وثابت(٢).

لقد تمَّ في سبيل نشر الحداثة الفكريَّة "تضليل عدد من الشَّباب الطَّيِّب، وتمَّت خديعة عدد من الرَّاسخين الطَّيِّبين باسم "الحداثة الأدبيَّة" دون أن يدركوا البعد الفكري أو العقدي الذي تقوم عليها "الحداثة".. ومن ثمَّ كان الصِّراع الذي دخل فيه المخدوعون والمضَلَّلون مع رافضي الحداثة وأبعادها المراوغة"(٣).

لقد كان انحدار "الحداثة" في الجانب الفكري والعقدي والأخلاقي سببا مهمَّاً من أسباب هبوطها إلى الهاوية، وسقوطها في المجتمعات الإسلاميَّة؛ وذلك لأنها سعت تلقائيَّاً إلى الاصطدام بالقيم الإسلاميَّة والثَّوابت الإيمانيَّة في مجتمعات لها ثقافتها "المنتمية" إلى منهجها الصَّحيح، وفكرها الأصيل الَّذي مهما حدث فيه من تجاوزات فرديَّة عبر العصور المختلفة فإنَّه لا يمكن أن يتخلّى عن ثوابته وقيمه وآدابه، التي عاشت شامخةً طيلة أربع عشر قرناً ويزيد، لا يجرؤ أحد أن

(١) بعد الحداثة صوت وصدى د. مصطفى ناصف ص ٤٠٥ -٤٠٦.

(٢) انظر: المرجع السَّابق ص ٤٠٧

(٣) الحداثة تعود د. حلمي القاعود ص ٥٢-٥٣.

ينال منها أو يتطاول عليها.

ومن الصُّعوبة بمكان أن يأتي هذا التَّيَّار ليجرف صرحاً شامخاً ظلَّ أبيَّاً قويَّاً طيلة القرون الماضية. تقول د. سهيلة زين العابدين: "الحداثة من أخطر قضايا الشِّعر العربي المعاصر؛ لأنَّها أعلنت الثَّورة والتَّمرُّد على كلِّ ما هو دينيّ، وإسلاميّ، وأخلاقيّ، فهي ثورة على الدِّين، على التَّاريخ، على الماضي، على التُّراث، على الأخلاق، واتَّخذ من الثَّورة على الشَّكل التَّقليدي للقصيدة الشِّعريَّة العربيَّة بروزاً تُبَرْوِزُ هذه الصُّورة الثَّوريَّة"(١).

ويرى د. محمَّد مصطفى هدَّارة – رحمه اللَّه – أنَّ الحداثة منهج فكري يُشكِّل ثورةً كاملةً على كلِّ الثَّوابت، وعلى كلِّ ما كان وما هو كائن في المجتمع(٢).

وهذه الثَّورة الكاملة، والتَّمرُّد على الثَّوابت بشكل مسيئ هو ما أشارت إليه الدِّراسة من خلال النُّصوص الشِّعرية التي عرضت لها(٣) من شعر شعراء الحداثة في العصر الحديث، حيث أبانت عن إسفاف فكري، وانحراف عقدي، وسقوط مريع في ميدان الثَّقافة، والفكر، والأدب، بشكل لم يسبق له مثيل في عصور الأدب الختلفة.

---

(١) صحيفة النَّدوة السُّعودية (العدد ٨٤٢٤، بتاريخ ١٤٠٧/٣/١٤هـ.

(٢) انظر: الحداثة – مناقشة هادئة لقضيَّة ساخنة – ص ١٣.

(٣) راجع: المبحث الثَّالث من الدِّراسة (ص ٢٦-٣٣)

الخاتمة

رحلة الحداثة – قراءة في الرُّؤية والتَّصوُّر ودوافع السُّقوط – هو عنوان هذا البحث الَّذي حاولت أن أرصد فيه هذه القراءة المتأنِّية لقضيَّة الحداثة ورحلتها إلى شعرنا الحديث، وما حملته في طيَّاتها من رؤىً وتصوُّرات متباينة، معزِّزاً ذلك بالنَّصّ الشِّعريّ الَّذي أفرزته الحداثة، حيث عرض البحث لبعض النَّماذج الشِّعريَّة في هذا الاتِّجاه، وبيان المضامين الفكريَّة التي تحملها.

حيث أبان "المدخل" في الدِّراسة عن أهمِّيَّة التَّجديد في الأدب، والنَّزعة إليه، لما يحمله من إضافات مفيدة في بناء الحركة الأدبيَّة.

وقد جاء البحث في أربعة مباحث، تضمَّن المبحث الأوَّل دراسة ماهيَّة الحداثة، ومفهومها عند الأدباء الغربيِّين، وكذا الأدباء العرب، من أقطاب الحداثة، ولم يتضمَّن المفهوم تجديداً في اللغة الشِّعريَّة، أو الصُّورة الفنِّيَّة، أو الإيقاع الموسيقي، حيث ركَّز بشكل واضح على معاني "الثَّورة" و"التَّمرُّد" و"الرَّفض" للتُّراث العربي، ولكلّ الثَّوابت، والمبادئ، والمسلَّمات.

أمَّا المبحث الثَّاني فقد أبان عن انتقال "الحداثة" إلى شعرنا الحديث، وما أفرزه ذلك الانتقال من ملامح جديدة، لم يألفها الأدباء، ولم يقفوا في العصور السَّابقة على مثيلها، حيث الاختلاف البعيد، والبون الشَّاسع في الرُّؤى والتَّصوُّرات.

وقد أفصح المبحث الثَّالث عن النَّماذج الشِّعريَّة التَّطبيقيَّة في شعرنا الحديث لكلّ ما قيل من تنظير حول الحداثة، ومفهومها، ومنهجها، وما تحمله من تصوُّرات تخالف المنهج الإيمانيّ وتصطدم بالثَّوابت والمسلَّمات، وتقفز على المبادئ والقيم الرَّاسخة، ومن أبرز ما عرضت له الإساءة إلى

الذَّات الإلهيَّة والتَّطاول عليها بأقذع الشَّتائم وألوان السُّخريَّة، وكذا الإساءة للأنبياء والرُّسل، والتَّطاول عليهم، والاستهزاء والسُّخرية بهم، والإساءة لكلّ ما يتَّصل بالقيم الإسلاميَّة والآداب السَّامية.

وقد اشتمل المبحث الرَّابع على تفسيرٍ لبعض الحقائق التي أنتجتها موجة الحداثة وآراء النُّقَّاد المعاصرين الذين أثبتوا حقيقة سقوط الحداثة، وانحرافها المريع في ميدان الثَّقافة والفكر والأدب، بشكل لم يسبق له مثيل في عصور الأدب السَّابقة؛ لما حملته من إسفاف فكري، وانحراف عقدي، وثورة على القيم النَّبيلة.

وبعد: فأحسب أنَّ هذه الدِّراسة قد أبانت رؤية واضحة لبعض المفاهيم التي دار الجدل حولها، ومنها مفهوم المصطلح، وأبعاده الفكريَّة، والكشف عن أثر ذلك في المضمون الشِّعري من خلال التَّطبيق على بعض النَّماذج الشِّعريَّة في شعرنا الحديث.

والحمد لله أوَّلاً وآخراً، وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

❁❁❁❁❁

المصادر والمراجع

- أبجديَّات في النَّقد والأدب لحجاب يحيى الحازمي، من منشورات نادي جازان
- الآثار الكاملة لمحمَّد الماغوط، دار العودة،بيروت، بدون تاريخ.
- الأدب الحديث – تاريخ ودراسات – أ.د. محمَّد بن سعد بن حسين، مطابع الفرزدق التِّجارية، الرِّياض، الطَّبعة الخامسة ١٤١١هـ.
- الأعمال الشِّعريَّة الكاملة لأدونيس، دار العودة، بيروت، الطَّبعة الرَّابعة ١٩٨٥م.
- الأعمال الشِّعريَّة لممدوح عدوان، دار العودة، بيروت ١٩٨٦م.
- الأعمال الشِّعريَّة لنزار قبَّاني، منشورات نزار قبَّاني، بيروت ١٩٨٧م.
- الأعمال الشِّعريَّة ليوسف الخال، دار العودة بيروت، ١٩٨٩م.
- الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها—دراسة نقديَّة شرعيَّة – د. سعيد بن ناصر الغامدي، دار الأندلس الخضراء، جدَّة، الطَّبعة الثَّانية ١٤٢٥هـ.
- بعد الحداثة صوت وصدى د. مصطفى ناصف، من منشورات النَّادي الأدبي الثَّقافي بجدَّة، الطَّبعة الأولى ١٤٢٤هـ.
- تقويم نظرية الحداثة. د. عدنان علي رضا النَّحوي، دار النَّحوي للنَّشر والتَّوزيع، الرِّياض، الطَّبعة الأولى ١٤١٢هـ.
- الثَّابت والمتحوِّل لأدونيس —أحمد سعيد علي –، دار العودة، بيروت، الطَّبعة الرَّابعة ١٩٨٣م.
- الحداثة بين التَّعمير والتَّدمير، د. حسن بن فهد الهويمل، دار المسلم، الرِّياض، الطَّبعة الأولى ١٤١٣هـ.
- الحداثة تعود د. حلمي محمَّد القاعود، دار المعراج الدَّوليَّة للنَّشر، الرِّياض، الطَّبعة الأولى ١٤١٢هـ.
- الحداثة الشِّعريَّة العربيَّة بين الإبداع والتَّنظير والنَّقد، د. خليل أبو جهجهة، دار الفكر اللبناي، بيروت، الطَّبعة الأولى ١٩٩٥م.
- الحداثة في الشِّعر العربيّ المعاصر بين التَّنظير والتَّطبيق، د. عبد الحميد جيده، دار الشَّمال للطِّباعة والنَّشر، طرابلس لبنان، الطَّبعة الأولى ١٩٨٨م.

❖ الحداثة في منظور إيماني د. عدنان علي رضا النَّحوي، دار النَّحوي للنَّشر والتَّوزيع، الطَّبعة الرَّابعة ١٤١٤هـ.
❖ الحداثة مناقشة هادئة لقضيَّة ساخنة، د. محمَّد خضر عريف، دار القبلة للثَّقافة الإسلاميَّة، جدَّة، الطَّبعة الأولى ١٤١٢هـ.
❖ الحداثة ونقد الأدلوجة الأصوليَّة، د. مصطفى خُلال، دار رؤية للنَّشر والتَّوزيع، القاهرة، الطَّبعة الأولى ٢٠٠٧م.
❖ ديوان بدر شاكر السَّيَّاب، دار العودة، بيروت، الطَّبعة الثَّانية ١٩٧١م.
❖ ديوان يا ساكنة القلب، د. عبد الرَّحمن بن صالح العشماوي، دار عالم الكتب، الرِّياض، الطَّبعة الأولى ١٤١٣هـ.
❖ ديوان سميح القاسم، دار العودة، بيروت، طبعة ١٩٧٣م.
❖ ديوان عبد العزيز المقالح، دار العودة، بيروت، الطَّبعة الثَّانية ١٩٨٠م.
❖ ديوان عبد الوهاب البيَّاتي، دار العودة، بيروت، الطَّبعة الرَّابعة ١٩٩٠م.
❖ ديوان الفيتوري، دار العودة، بيروت، الطَّبعة الثَّانية ١٩٨١م.
❖ ديوان محمود درويش، دار العودة، بيروت، الطَّبعة العاشرة ١٩٨٥م.
❖ سقوط الحداثة لمحمَّد عبد الشَّافي القوصي، دار المرَّيخ، للنَّشر، القاهرة، الطَّبعة ٢٠٠٤م.
❖ الشِّعر الحديث في المملكة العربيَّة السُّعوديَّة خلال نصف قرن (١٣٤٥هـ-١٣٩٥هـ) د. عبد الله الحامد، من منشورات نادي المدينة المنوَّرة الأدبي، الطَّبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
❖ شعرنا الحديث ... إلى أين ؟ د. غالي شكري، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطَّبعة الثَّانية ١٩٧٨م.
❖ الشِّعر المعاصر على ضوء النَّقد الحديث لمصطفى عبد اللطيف السِّحرتي، مطبوعات تهامة، جدَّة، الطَّبعة الثَّانية ١٤٠٤هـ.
❖ فصول في الشِّعر ونقده د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطَّبعة الثَّالثة ١٩٨٨م.
❖ الفنُّ الآن، لهربرت ريد، لندن، الطَّبعة الأولى ١٩٦٠م.
❖ في الأدب الحديث لعمر الدُّسوقي، دار الفكر للطباعة والنَّشر والتَّوزيع، الطبعة السَّابعة ١٩٧٣م.

❖ في البنية الإيقاعيَّة للشِّعر العربي د. كمال أبو ديب، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثَّانية ١٩٨١م.
❖ قصيدة (لا) قراءة في شعر التَّمرُّد والخروج، لأحمد عبد المعطي حجازي، مركز الأهرام للتَّرجمة والنَّشر، القاهرة، الطَّبعة الأولى ١٩٨٩م.
❖ قضايا الشِّعر المعاصر، لنازك الملائكة، دار العلم للملايين، بيروت، الطَّبعة السَّابعة ١٩٨٣م.
❖ الكتابة بسيف الثَّائر علي بن الفضل د. عبد العزيز المقالح، طبعة بيروت ١٩٧٩م.
❖ المرايا المحدَّبة – من البنيويَّة إلى التَّفكيك– د. عبد العزيز حمُّودة، النَّاشر: عالم المعرفة، الكويت، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.
❖ مقدِّمة للشِّعر العربي، لأدونيس — أحمد سعيد علي — دار العودة، بيروت ١٩٨١م.
❖ نقَّاد الحداثة وموت القارئ د. عبد الحميد إبراهيم، منشورات نادي القصيم الأدبي ببريدة، الطَّبعة الأولى ١٤١٥هـ.

الدَّوريات:

❖ مجلَّة الجامعة الإسلاميَّة بالمدينة المنوَّرة (العدد ٧٤) محرم ١٤٠٧هـ.
❖ مجلَّة الحرس الوطنيّ (العدد ٩٦٣) ربيع الآخر ١٤١٠هـ.
❖ مجلَّة فصول المجلَّد الرابع – الجزء الثالث سنة ١٩٨٤م.

الصُّحف:

❖ صحيفة النَّدوة السُّعوديَّة (العدد ٨٤٢٣) بتاريخ ١٤٠٧/٣/١٤هـ

❁❁❁❁

فهرس الموضوعات

المقدمة ٢٨٦
مدخل:..... ٢٨٩
النَّزعة إلى التَّجديد: ٢٨٩
المبحث الأوَّل: ٢٩٢
مفهوم الحداثة وجذورها..... ٢٩٢
المبحث الثاني: ٣٠١
انتقال الحداثة إلى الأدب العربي ٣٠١
المبحث الثَّالث: ٣١١
أثر الحداثة في الشِّعر الحديث..... ٣١١
المبحث الرَّابع ٣٢٣
سقوط
لحداثة.....٣٦
الخاتمة ٣٢٧
المصادر والمراجع..... ٣٢٩
فهرس الموضوعات ٣٣٢